•

.

📍 حتميات نبوية

📢 رُوِيَ عن رسول الله (ص) أنه قال: "مَنْ عَيَّرَ أَخاهُ بِذَنْبٍ قَدْ تابَ مِنْهُ لَمْ يَمُتْ حَتّ يَعْمَلَهُ".

هذه حتمية أخرى يكشف عنها رسول الله (ص) ومفادها: أَنَّ العقوبة على الذنب تكون من سنخه هو، فمَن عَيَّرَ أخاه بذنب، وقع هو فيه عقابا له على تعييره، مع ما يستلزم ذلك من مَهانة وذِلَّة، وصيرورته هو مَحلاً للتعيير من قبل الآخرين، فضلا عن عقوبته الأخروية. والتَّعيير هو الانتقاص من الشخص الآخر، ونِسْبَة القبائح إليه، وإهانته وتنقيصه، وتذكيره بما كان منه،

ووصمه بالعار وصفات المذنبين الفجار. والتَّعيير من أقبح الأفعال وألأَمِها، وصِفةٌ قبيحة مَذمومة، على كل شخص ويُقدِّرُ ذاته أن يسارع إلى تهذيب نفسه منها، ولا يُعَيِّرَ الآخَرين بذنوبهم إلّا ذو نفس لَئيمَةٍ، ينتشي بإيلام الآخَرين، ويستعلي عليهم بتذكيرهم بما كان منهم من ذنوب، لِيُقدِّم نفسه أنَّه الأَوحد في ساحة التُّقى والالتزام الديني والأخلاقي، والحقّ أَنَّ التَّعيير بالذَّنب أَشَدّ مِنَ الذَّنب نفسه، والمُعَيِّر به أكثر جُرْماً وأَشَدُّ ظُلماً لنفسه ولغيره من المُعَيَّرِ.

إنَّ الذَّنب مُتوقع مِنْ كل أحد، خلا مَنْ عصمه اللّٰه تعالى، أو وفقه للمقام الأسنى من التقوى، أَمّا أَنا وأَنْتَ قارئي الكريم فكلنا خطاؤون، وخيرنا من يتوب عن خطئِه، ومَن نَدِمَ وتاب واستغفرَ وأَنابَ فإن اللّٰه تعالى يقبل توبته، ويغفر له، بل يقول له: استأنف العمل كأنك مولود جديد، إذْ التوبة تَجُبُّ وتمحو ما قبلها، واللّٰه سبحانه يُحِبُّ التوابين ويُحِبُّ المُتَطَهِّرين. فكيف والحال هذه يُسَوِّغ أَحَدُنا لنفسه أن يُعَيِّرَ أخاً له بذنب تابَ منه

وأصلح، واستقام على صراط الله، هل يريد بذلك التَّأكُّدَ من توبته؟! لا والله. أم هل يريد أن يعينه على سلوك طريق الهدى؟! لا والله. بل إنه يريد أن يتفاخر عليه بتقواه وبصلاحه، ووالله لا يكونُ مُعَيِّرٌ تقياً ولا صالحاً، وأَنَّى له ذلك وهو يَشْمَتُ بذنب أخيه ويُذَكِّرُه به صُبحاً ومساءً، ولعلَّه يريد أن ينتقم منه بذلك، ولعله لحقدٍ منه عليه فلا يشفي غَليلَه إلّا بتَعييره.

هذا إذا كان التَّعيير بينَهَ وبينه، في الخَلْوَةِ لا في العَلَن ولا أمام المَلأ من الناس، أَمّا إن كان في العَلَن وعلى مَرأى النَّاس ومَسامعهم فالتَّعيير هنا يَربو إثمه وتُعْظُمُ جريرته، إذ يجتمع في هذا الفعل أكثر من ذنب، يجتمع فيه التَّشهير، وهتك الكرامة، والإساءة إلى السمعة، والتفسيق، والإذلال، والتَّحقير، ولو لم تكن إلا هذه الذنوب لكفاها باباً إلى الطّامة الكُبرى من عذاب الآخرة.

أمّا لو أضفنا إلى ذلك الآلامَ النفسية المُبْرِحَة التي يتسبَّبُ بها المُعَيِّرُ للمُعَيَّر، وما قد يدفعه إليه من ردود

أفعالٍ ذَوداً عن سُمعته وكرامته، فالطامَّة أكبر، وقد يكون التعيير سبباً لرجوع التائب من الذنب إلى ارتكابه تارة أخرى، فيكون المُعَيِّرُ من قُطَّاع الطُّرُق إلى الله تعالى، وبأَسَفٍ أقول: إنَّ هذا اللَّون من التعامل مع المذنب التائب كثير، ويكاد يكون فاشياً في مجتمعنا، وإن كثيراً مِنَّا لِسَبَبٍ أو لآخر، ومن جهل أو على عِلم، هو قاطعُ طريقٍ على كثير من التائبين الجادّين في توبتهم. لذا نهى النبي (ص) عن لَوْمِ وتقريع وتعيير المُذنبين حتى ولو كانوا من أصحاب الكبائر، وبَيَّنَ أن أقصى ما يملكه المجتمع حيال هؤلاء هو نَهيهم عن منكرهم، ودعوتهم إلى التوبة، وإصلاح ما أفسدوه، واحتضانهم ومساعدتهم على التوبة وتهيئة الظروف المعينة لهم على ذلك، وذاك هو دَأَبُ وخُلقْ أنبياء الله ورُسُلِه وأوليائه المعصومين، والمتقين من عباده، فهذا نبي الله يوسف (ع) نراه لا يقتصُّ حقَّهُ من أخوته رغم أن الفرصة كانت سانحة لذلك، بل لا يُوَبِّخُهُم ولا يُقَرِّعُهُم، رغم قسوتهم معه وافترائهم عليه، بل يواجهه باللُّطف

والمَحَبَّة والتَّحنان، ويدعو الله، يسأله المَغفرة والرَّحمة لهم ويقول لهم: "...لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"۝{92/ يوسف}۝.

✍ السيد بلال وهبي